حسن جلال باشا

كان حسن باشا جلال المتوفى في ١٨ جمادى الاولى الماضي من رجال العلم والعمل والفضيلة ومكارم الاخلاق الاسلامية، ففي سيرته من العبرة وحسن الاسوة ما يتوخى المنار نشره، ولم يكن تركنا لترجمته عقب موته تعمدا كتركنا تراجم أكثر من يموت من أرباب المناصب والرتب العلمية، والمظاهر الدنيوية العارين عما يتوخاه المنار، وإنما تركناها الآن لما نعلمه من سيرته قليل مجمل، وكان محمد توفيق أفندي أبو طالب رئيس كتاب محكمة مصر الاهلية قد أخبرنا بأنه شرع في كتابة ترجمته له، فانتظرنا صدورها للاخذ عنها وأكثر ما نرويه خلاصة منها

ولد الفقيد بمصر لاربع خلون من شعبان سنة ١٢٧١ ولما بلغ سن التعليم أدخل في مدرسة خليل آغا فكان لاول من طلبتها في جميع فصولها فمهد له ذلك دخول مدرسة دار العلوم التي أنشئت في سنة ١٢٧٨ بطريق الاستثناء لفقده بعض شروطها، فمضى وجد الى ان حصل ما كان ينقصه منها، وفي سنة ١٢٩٢ جعل مدرسا بالمدرسة التجهيزية بعد أداء الامتحان المشترط لذلك، وفي سنة ١٢٩٥ اختير لتدريس اللغة العربية لابناء فاضل باشا فرافقهم الى سويسرة وتعلم فيها اللغة الفرنسية، وكان يتردد فيها على وزير مصر الشهير مصطفى رياض باشا دون جميع من هنالك من المصريين (اذ كانوا يجتنبون لقاءه لمغاضبته للخديو اسماعيل باشا) فلما اعتزل اسماعيل وولي توفيق وعاد رياض الى وزارة مصر أرسل الفقيد الى أوربة لتحصيل علم الحقوق على نفقة الحكومة فنال شهادة الحقوق وعاد الى مصر فخدم القضاء مساعدا للنيابة فقاضيا فوكيلا لبعض المحاكم فرئيسا لمدة منها آخرها محكمة الاسكندرية تولاها عشر سنين ونصف سنة فستشارا في محكمة الاستئناف وكان آخر راتبه الشهري فيها مئة جنيه.

ومن خدمته للعلم انه كان عضوا في المجلس الاعلى للازهر والمعاهد الدينية وعضوا في اللجنة الادارية لمدرسة القضاء الشرعي

هذه السيرة الرسمية التي تتلمح لتحصيل مثلها اعناق أكثر المتعلمين ليست مما نحفل بذكر أصحابها في المنار وانما فضل الرجل عندنا في سيرته العملية وأخلاقه وآدابه الدينية التي فضل بها الجم الغفير من أمثاله رجال القضاء، وممن يعد فوقهم في المنصب والجاه كالوزراء والامراء

كان الرجل محافظا على أوامر دينه ونواهيه من سن الصبا الى سن الشيخوخة لم يفتن

في شبابه بمعاصي الشهوات، ولا في كهولته بمنكرات العظمة والكبرياء، ولا في شيخوخته بدناءة الطمع والحرص على المال، ولم تزلزل الاقامة في البلاد الاوربية، ما نشأ عليه من الآداب الاسلامية، ولم تفسد عليه عفته وورعه، ولم تحوله عن زيه الملي ولا عاداته، حتى إنه كان يتورع عن أكل ذبائح النصارى لكثرة الملاحدة فيهم، ويذهب من محل اقامته الى جزار يهودي في مكان بعيد يشتري منه اللحم ويعالجه لنفسه

وروى أبو طالب عن بعض عشرائه من شبان المصريين طلاب علم الحقوق في فرنسة أنهم أغروا به امرأة بارعة الجمال لتراوده عن نفسه، وجعلوا لها عشرة جنيهات ان هي فتنته عن عفته، فجاءت حجرته متبرجة بما استطاعت من زينة، وطرقت الباب ففتح لها، وسألها قبل الدخول عن حاجتها؟ فضحكت ضحكة دل ومداعبة، ورأرأت رأرأة مغازلة وملاعبة، وحاولت الدخول عليه، ومدت يدها اليه. فدفعها بعنف وأغلق دونها الباب، فرجعت خائبة تجهر بالهجر والسباب.

ومما رواه من سيرته أنه كان أبر الناس بوالديه وأوصلهم لرحمه، وأحفاهم باخوانه وأصدقائه، وأشدهم عناية بكل من له عهد وصلة به، مرضت والدته بمصر أيام كان مقيما في الاسكندرية رئيسا لمحكمتها فكان يعودها كل أسبوع حاملا معه ملاءات فراشها كاملة النظافة والكي ويتولى ترتيب ذلك وفرشه بيده، وكان وهو يطلب الحقوق لأربابها يرسل اليها في كل شهر جزءا من راتبه. وبلغني أنه كان ينفق ثلث الراتب ويرسل اليها الثلث ويجعل الثلث الثالث للكتب، وما زال محبا للكتب باحثا عن نفائسها المخطوطة طول عمره، وكنت أراه في أواخر عمره يختلف الى صفار باعة الكتب ويجلس عندهم باحثا عما عساهم التقطوه من بعض التركات، أو أصحاب الحاجات

قال أبو طالب: وكان وفيا بالعهد فقد عرف في (قـ) يوم تولي القضاء فيها بدالا مصريا متوسط الحال كان يشتري منه حاجته فلما عاد اليها وهو مستشار سأل عنه فقيل له ان حالته تضعضعت وتجارته كسدت وهو الآن يبيع المراوح، فلم يمنعه ذلك من زيارته وتعهد شأنه كلما ذهب الى قنا، ولا تسل عن اغتباط ذلك البدال بمثل هذه الزيارة فانها كانت أشهى اليه من رد ثروته بل شبابه عليه اه

وأفضل ما يؤثر من مناقبه مبالغته في الاستقلال والعدل في القضاء حتى انه لم يكن يقبل

شفاعة ولا حديثا في قضية رفعت اليه ولا في ترقية عامل تحت رياسته كأنه لم يكن يكلم أحدا من أصدقائه القضاة ولا غيرهم في مثل ذلك. وقد اشتهر بذلك حتى لم يكن أحد من أقرانه ولا ممن فوقه في المناصب يطمع أن يكلمه في شيء من ذلك، وله مواقف ووقائع تؤثر في ذلك ذكر بعضها أبو طاب. ويعجبني ماقاله في إثر هذه المناقب، وهو:

« ولقد أغفلت التوسع في حياة الفقيد القضائية وذكر الحوادث التي اتفقت له دلة على مبلغ ماكان عليه من الفقه في القضاء والعدل والشجاعة مكتفيا بأن المعاصرين أحاطوا بكل هذه الاحوال ويلوح لي أن كتابة تاريخ المعاصر بالتفصيل فيه من الصعوبة ما لا يظهر لاول وهلة ولذلك قصرت على هذا الالماع اليسير

« وما كنت لاطمع أن يكون كل المصريين كحسن باشا جلال فهذا من المحال قطعا ولا أرجو أن يكون واحد في الالف كذلك بل الذي آمله أن يتصفح هذه الورقات باممان وأن لا يستصغروا شأن الحوادث التي سقتها هنا مثالا من أخلاقه عسى أن يحتذي حذوه ويهتدي بهديه نفر من الامة ليعملوا كما عمل امل الله يبعث فيها الحياة الحقيقية التي لا يظهرها الا مثل هذه الاخلاق فان الذي يعيش الآن بين ظهراني المصريين لا يمكنه أن يتجاهل العلماء المجيدين في كل علم وفن، فمصر ليست فقيرة من هذا النوع، اذ للقضاء رجال وللطب آخرون وللهندسة والزراعة مثلهم ولكل مطلب من مطالب الحياة قوم يشغلهم شأنه، وما ينقص المصريين الا شيء واحد وهو الاخلاق، فان ذوي الاخلاق الفاضلة قليلون بالنسبة لمجموع الامة ومدارسها ومعاهدها. وانني على قدر معلوماتي القاصرة لا أرى بابا لهذه الإخلاق الا النفس التي بين جنبي كل حي من الامة فما عليه الا أن يروضها على الفضائل التي شاعت في الكتب وتداولتها ألسن الصغار وغفلت عنها عقولهم، فان أصغر كتاب مدرسي فيه بيان لاصول الفضائل، ولو مرنت النفوس مرانا حقيقا عليها لتغيرت الاحوال تغيرا عظيما في وقت قصير. أما ما نعيش الآن فيه من حيث الاخلاق وآداب المعاملات فما يعجز عن وصفه أبرع كاتب بليغ، واني ليحزنني جدا أن أجهل مصدر هذا الداء الوبيل الذي تفشى تفشيا مزعجا فان ابن عشر سنين يبرز في النفاق والمداهنة على ابن الستين، فنحن نتقدم فيها ولكنه تقدم معكوس، لان كل من أتقن

هذا النفاق قد ظهرنا كيسا، وقد عم جمود الاحساس والعواطف كثيرا من هذه الطبقات في هذه الامة ذات المجد القديم والتاريخ العظيم التي تحتاج الى شيء بسيط حتى تكون من أرقى الامم وذلك باعتدال أبنائهم في أحوالهم وأقوالهم وأعمالهم بلا افراط ولا تفريط لان الحالة الوسطى تكاد تكون معدومة وقد ضاعت الحياة فيها

وفي النفس حاجات وفيك فطانة سكوتي بيان عندها وخطاب

« وعندي ان اصلاح شأن هذه الامة التي سهلت طباعها وزكت نفوسها ولان جانبها وسهل قيادها الا يأتي الا بحسن اختيار العاملين من أبنائها من أصغر عامل عمومي وهو الخفير الى أكبر موظف وهو الوزير، فما كل النفوس بصالحة للخدمة العامة التي تتطلب صفات خاصة تظهر في صاحبها من أول نشأته، فاذا صح انتقاء هؤلاء أصبحت مصر في زمن قليل فردوس الارض لان هذه الامة سريعة التقليد لحكامها. اه المراد

[المنار] لقد هدى هذا الكاتب الى ما يجب من العبرة في هذه السيرة الحسنة بعبارة تدل على انه عني بتهذيب أخلاقه وتربية نفسه حتى ظن أن ذلك يسير على أكثر الناس المتعلمين. وهيهات هيهات، إنهم عن السمع لمعزولون، وعن الحاجة الى تزكية النفس لغافلون، وهذا التعليم المعروف لا يزيدهم الا غفلة واعراضا عنها، ولن يكون ذلك الا بانقلاب يتغير به نظام التربية والتعليم ويكون أمرهما موكولا الى أصحاب الفضيلة والحكمة من الامة، وأين هم؟ وكيف السبيل الى تفويض الامر اليهم؟ وأما اختيار أمثالهم لاعمال الحكومة فمن يقدر عليه ويعنى بتنفيذه، هنا محل التأمل للمتأملين.

التحول في ميادين الحرب وقرب أجل الصلح

هجم الالمان في أول فصل الربيع من هذا العام على الجيوش الانكليزية في شمال الميدان الغربي هجوما لم يسبق له نظير كانوا يضربون به جميع خطوط القتال بمدافعهم في وقت واحد ويعطرون البلاد الواقعة وراء هذه الخطوط وابلا من مدافعهم الى مسافة ٢٨ ميلا وكان غرضهم الفصل بين الجيوش الانكليزية وبين الفرنسية والامريكية للتمكن من سحق الاولى والتفرغ بعدها للاخرى أو تخضع لطلب الصلح بلا شرط ولا قيد. وما كاد يتم لهم مبدأ ما يحاولونه حتى حدث في خطة